الرسالة الناصحة

صنفها

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري

٤٦٧ هـ - ٥٣٨ هـ

حققها على مخطوطة فريدة

هلال ناجي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة

إقليم خوارزم في زمننا هذا موزع بين جمهوريتين من جمهوريات الاتحاد السوفيتي المنحل هما : أوزبكستان وتركمانستان. وكانت «كركانج» هي قصبة بلاد خوارزم ومدينتها العظمى، وقد عُرِّبت فقيل لها «الجرجانية» وهي على شاطئ جيحون. و «زَمَخْشَر» التي نُسب إليها الزمخشري مدينة صغيرة كانت تقع بين نوزوار والجرجانية.

مولده، اسمه، كنيته، لقبه :

في السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ ولد في زمخشر جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري. وقد نشأ الزمخشري في أيام الوزير نظام الملك الذي ازدهرت في عهده العلوم والآداب، والذي كان بابه مجمعا للفضلاء وملجأ للعلماء. في عهده نشأ الزمخشري في كنف أب عالم أديب تقيٍّ ورع محدود الموارد .

وكنتُ قد فَصَّلْتُ القول في شيوخه وتلاميذه ومن أجازهم وفي أطراف من سيرته ومذهبه وآراء المصنفين فيه. وأوردت ماوقفتُ عليه مما امتُدح به شعرا. ثم فَصَّلْتُ الكلام عن آثاره مطبوعة ومخطوطة ومفقودة. ثم عقدت فقرة للحديث عن موقفه المناهض للشعوبية والمعبر عن اعتزازه بالعربية لغة القرآن الكريم . وذكرت وفاته في كركانج ليلة عرفة من عام ٥٣٨ هـ .

وقد نشرت هذه الدراسة الموسعة مرتين، فلا مبرر لتكرارها في مقدمة نصّ قصير مثل رسالتنا هذه، فأكتفي بالإحالة على النشرتين[١].

توثيق النص ونظرة فيه :

إن النص الذي ننشره اليوم، كان من آثار الزمخشري المفقودة أجمع على ذلك كل من نشر أثراً من آثاره أو ترجم له .

حتى وَفَّقَنا اللهُ إلى الظفر بمخطوطته الوحيدة في العالم. وهي الرسالة الأولى ضمن مجموع محفوظ في «كتابخانة ملي ملك» في طهران ورقمه فيها ١٦٢٢. والمجموعة كتبت سنة ٥٨٩ هجرية تضم رسائل للزمخشري وغيره. ووقع نقص في أوراقها في مقاماته كما سقط قسم مهم من آخرها. لكن رسالتنا هذه وصلت سالمة .

وقد كتب على الورقة الأولى مانصه «الرسالة الناصحة كتبها الشيخ الإمام العلامة فخر خوارزم أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري رحمه الله إلى بعض الأئمة الذين كانوا في زمنه».

وعلى صفحة العنوان خاتم المكتبة، وأشعار بالعربية والفارسية لاصلة لها بالنص . وعليها تملكات قرأت منها: الطباطبائي يوسف بن محمد وبجواره ختمه. وتملك آخر أحمد بن الحسين بن علي لم يظهر تاريخه في التصوير .

وقد أثبت الناسخ في خاتمة الرسالة اسمه وتاريخ الفراغ من نسخها

---

(١) انظر: الزمخشري: حياته وآثاره- مجلة عالم الكتب م ١١- ع ٤- ربيع الآخر ١٤١١هـ- نوفمبر ١٩٩٠- ص ٥١١- ٥٢٤. فصلية متخصصة- دار ثقيف للتأليف والنشر- الرياض- السعودية.

وانظر كتابنا «أربعة شعراء عباسيون» تأليف هلال ناجي ونوري القيسي بيروت- دار الغرب الإسلامي ١٩٩٤- (ص ١١٩- ١٦٢).

بالصيغة التالية :«تمت يوم الخميس من سلخ شهر الله الأصم رجب سنة تسع وثمانين وخمسمائة على يدي المنيب المضيّع لعمره محمد بن أبي يوسف بن عمر بخطه حامداً لله تعالى ومصليا على رسوله المصطفى محمد وآله مصابيح الهدى».

وهذه الرسالة ذكرها ياقوت في كتابه «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» طبعة مرغليوث ٧/ ١٥١ في تصانيف الزمخشري(٢) وهو أمر يقطع بصحة نسبتها إليه.

وفي دراسة النص نجد أن الزمخشري حرّره إلى أحد الأئمة في زمنه لم تفصح عنه المصادر، ووَجَّهَهُ إليه حين توسّم فيه حبّ العلم وتوقير العلماء والالتزام بتعاليم الإسلام وأوامره ونواهيه وصدقاً في الورع ونيّة صادقة في إحياء السُنّة وإماتة البدع .

وقد ألقى إليه في الرسالة عشر نصائح صدرت عن قلب محبٍ له واثق بمودته. وطلب إليه أن يتدبرها ويمتثلها .

في الكلمة الأولى أوضح له أن العلماء هم ورثة الأنبياء ودعاه أن يربأ بنفسه أن يُرى على باب ظالم.

وهذه الكلمة تحمل النَفَس ذاتَه الذي عُرف به الزمخشري في كتابه «أطواق الذهب» إذْ دَعا به إلى الثورة على الظلم والفساد والتمسّك بالعدل والفضيلة.

وفي الكلمة الثانية دعاه إلى اجتناب الارتزاق من منائح الظلمة وأياديهم. ودعاه في الكلمة الثالثة إلى بذل علمه إلى طالبيه وأن يكون سخيّاً في ذلك غاية السخاء وفي الكلمة الرابعة دعاه أن يقصد بمواعظه وكلماته

(٢) وانظر معجم الأدباء بتحقيق أحمد فريد الرفاعي ١٩/ ١٣٤ . [معجم الأدباء بتحقيق الدكتور احسان عباس ٦/ ٢٦٩١/ المجلة] .

ودروسه العلمية وجهَ ربّه، لا التوثب والتطلع إلى المراتب والمنازل .

ودعاه في الكلمة الخامسة إلى بذل غاية الجهد في إفهام المُتَلَقِّين عنه من طلبته، وألاّ ينتقلوا من موضوع إلى آخر إلاّ بعد إحكامه وإتمامه، فبذلك وحده يرثون خزائن علمه ويُورِثون.

وفي الكلمة السادسة دعاه إلى الإنصاف في المجادلة والمناظرة. وعدم اللجاجة إذا اتضح له أنّ الحق بجانب خصمه. وأن يخفض جناحه للحق فهو أعلى من الغلبة وأحسن في الأحدوثة وأجمل .

ودعاه في الكلمة السابعة إلى اجتناب داء الضرائر وهو المنافسة بين أهل المحابر والمنابر، ودعاه إلى تجنب المنافسة، وقال: إنها عند الرعاع هجنة وفتنة فكيف بالعلماء الذين هم قدوة الناس وأسوتهم.

وفي الكلمة الثامنة دعاه إلى التزام سمت المشايخ في التوقر والتزمت وحسن التماسك والتثبت، والصبر واحتمال الأذى وعدم الضجر وكظم الغيظ واجتناب الغضب. وأوصاه أن يكون وجهه متهللاً في مقامات الجدال.

ودعاه في الكلمة التاسعة ألاّ يفتي على عمياء، وأن يجتنب الفطير من الرأي، وألاّ يفتي الاّ بما احتاط له .

وفي الكلمة العاشرة دعاه إلى اجتناب الرياء والتكلف.

وهذه الكلمات في مجموعها كتبها إلى عالم من علماء زمنه تصدّر للتدريس في مدرسة ما، وهي إلى متانة أسلوبها وجزالته، تنضح بالقيم الخلقية الرفيعة. أحسبها من نوادر النصائح التي يوجّهها عالم أديبٌ كبير إلى عالم آخر يتصدر للتدريس في عصره.

ولقد اعتمدتُ المخطوطة الفريدة التي أشرتُ إليها في صدر كلمتي

هذه في تحقيق الرسالة، وفَسَّرْتُ من ألفاظها ماغمض واستبهم، ورأيت في أسلوبها البليغ، ونفاسة محتواها، وكونها من النصوص التي لم تفترع من قبل، بل وما عدّه المختصون بدراسة الزمخشري في الضائع من آثاره، أقول: وجدتُ في ذلك كلّه دافعاً إلى أن أنْشُرَ نَصَّها النادر لينتفع به طلابُ المعرفة .

والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً

وكتبه طالب عفوه الراجي

هلال بن ناجي

الدمعة على سبيل الرياء. والسمعة وإن لا ترى [illegible] فانو الدعابه
والنشاط قليل الاسترسال والانبساط ناطقاً كما [illegible]
جاهراً كالمخافت فإذا سمعت بحفيف الموكب المار تحركت
وانتعشت ونبت لك عرف وانتفشت ورفعت من صوتك
وأصوات أصحابك وباشت من صرحتك وأجلاك التسبيح
المار فذلك الزجل واللجب وبعض من كثرتك واجتهادك
العجب فافعل واعمل على تخليص لله عملك ولا تتوسط
إلا بعروته الوثقى أملك واجعل نيتك ولهه في جميع
ما أنت فاتيه بسداده وقائم على صدقه. تمت يوم الخميس [illegible]
[illegible] سنة [illegible] على يد [illegible] المسيع [illegible]
[illegible] حامداً لله تعالى ومصلياً على رسوله المصطفى
محمد وآله وصحابه أجمعين

الصفحة الاخيرة من المخطوطة المعتمدة

الصفحة الأخيرة من المخطوطة المعتمدة

بسم الله الرحمن الرحيم

صنعَ اللهُ لكَ بتوفيقٍ يمدُّ لكَ أسبابَه، ويفتحُ لكَ أبوابَه، ويَهْديكَ إلى مراشدِه، ويهجمُ بكَ على مواردِه، وأمَدَّك بعصمةٍ تُفارقُ بها مواقفَ الزَلَل، وتُسافرُ عن مواطنِ التفريطِ في العمل. ورزقكَ حياةً طَيِّبةً يُمَهِّدُ لك فراشَها، ووطاءةً من العيش يُضفي عليك رياشَها، وحالاً صالحةً يغبطك بها مُوادُّك، ويحسدُكَ عليها مُحادّك. تتقلّبُ منها في الجناب الأخضر، وتغترف من شربها بالسقاءِ الأوفر. وإذا بلَّغك فيها الأمانيّ، فأودعكَ الشكر السُليمانيّ، فإنّ النعمة إذا لم يُتَحَدَّث بها انقلبَ روضُها كلأً وبيلا، وأصبحتْ إلى نقمةِ الله وغضبهِ سبيلا. وحاطكَ فيها من طُرَفِ الإتراف وبَطَرِه، ومَغَبَّةِ الإسراف وسُوءِ أثَره. فكم بين المُعْسِرِ التَرِب وبين المُوسر المترِب، وإن استمجد مَرْخَ نعيم هذا وعَفَارُه[١]، ونُشر على ذلك طمرُه[٢] وقفارُه، إذا نَزَتْ بالموسر بِطْنَتُه، وخَمَدَ ذكاؤه وفِطْنَتُه، فغرز رأسَهُ في سِنَةِ الغفلة والسهو، وباع ماعند الله باللذاذة واللهو، ورجع أخيب صَفْقة (٢ آ) من شيخ مَهْو[٣] وصَبّر المُعْسِرُ على مكابدةِ سوءِ الحال والشَظَفِ ومُعاناةِ مايلقى من الحَفَف[٤] والضَّفَف[٥]، وعَصَمه فَقْرُه مما تَخَرَّقَ فيه الغَنِيُّ من ركوبِ المناهي، وتَخَبَّطَهُ به الشيطانُ من تُرس الملاهي .

إذا عصم الفَقْرُ الفتى من ركوبه ... معاصيَ مولاه فما أخسر الفَقْرُ
وإنْ تَرَهُ أرخى عِنانَ فؤادِهِ ... بعصيانِه المولى فما فعل الكفرُ[٦]

وجعَل مُنْقلبك عن الحياة الطيِّبة في الأُولى، إلى أطيب منها وألذّ في العُقْبى، في جوار العلماءِ الأتقياءِ غير الأشقياء، وفي صحبة الأبرار من ورثة

الأنبياء، فإنّك بحمد الله حقيقٌ بأن يرتاح لك – عَزّ اسمُهُ– بالفوز والكرامة، وتنفح لك يداه بإحلال دار المقامة، لما تميّزتَ به من كثير من أهل مَسْقَط رأسك، وعالَمٍ من أبناء جنسك، من نفس زاكيةٍ كملَتْ إنسانيّتُها، وصَحَتْ في تتبّع الحقائق نيّتُها، ومن إتقانٍ في العلم نَعَشَ اللهُ به رُكْنَيْك، وصدقٍ في الورع طهَّرَ به رُدْنيك، ومتانةٍ في إحياءِ السُّنّة أنتَ نَسيجُ وحدها، وحماسةٍ في إماتة البِدْعة أنتَ قائد جُنْدها، وخدمةٍ للفقاهة في الدين أنتَ فيها أبداً مُشَمِّرٌ عن الساق، مشدودُ الخاصرة بالنّطاق. الليالي تبشّ بك سروراً بلقائك، وتُسبّحُ للهِ داعيةً بإطالة بقائك (٢ ب) لأنّك مُحْييها إذا أماتَهُ(*) المُعَطّلون، ومُسَهّدٌ أجفانَك فيها إذا رقدَ المتبطّلون. تراك وحدك ماثلاً وإياهم صَرْعى، ولا يرى الفرقدان أرقب منك لهما وأرعى. فراشكَ مَطْويٌّ وقد نشروا مَفارِشَهم، ورواهِشُك(٧) باديةٌ وقد غمرت الكدية رواهِشَهم. تُسَمِّنُ دينَك إذا سَمّنوا أبدانَهم وماشيتَهم، وتتعهد حواشِيَ كُتُبك إذا تعهّدوا خَوَلَهم وحاشيتَهم. وما أنسَ لاأنسَ من بين خِلالك السنيّة، وخصالك السريّة واحدةً هي أسنى من جميعها وأسرى، وأحقّ بالنداء عليها وأحرى، وقصتُّها أغرب، وحديثُها أعجب، وتلك إقامَتُك على وضوءٍ دائب، وعلى طُهْرٍ ضربةَ لازب، وأنّك(٨) في عمرك في دفتر، ولا قبضت بثلاثك على مِزْبَر، ولا اتفق لك استمدادٌ من طرفي الحبر والنقس إلاّ على سبوغ الطهر وتمام القدس، ورُبَّ واحدةٍ هي عند الواحد المنّان ثمن الخلودِ في مخارف(٩) الجنان. وايْمُ اللهِ إنّ طهارة ظاهرك لينمّ على طهارة باطنك، وإنّ نقاء بارزك ليترجم عن نقاءِ كامنك، فإنّ مَثَلَ ضميرِ الإنسان مَثَلُ المادةِ إلّا أنْ ينبع بعذْبِ فراتٍ يُبَشَّر به مائحه(١٠)، ويشدو عليه ماتحه(١١)، أو بملحٍ أجاجٍ يَعْبِسُ من أسقاه، ويتفل من احتَساه (٣ آ).

(*) كذا في الأصل، والصواب: أماتها.

وفص أمركَ وسرُّهُ أنّك لما أصبحْتَ من مقامات الناقصين بمعزل، ومن العلم والدين بمنزل، كان كلُّ شيءٍ تعلّق منهما بسبب أو تشبّث منهما بذنب، فخماً عندك مُفخّماً، عظيماً في نفسك مُعظّماً، فأنتَ وإنْ استفرغتَ طوقكَ في احترامه وإكرامه، وخرجتَ عن مجهودك في إكباره وإعظامه، كنتَ لنفسك مُستقصراً، ولِما استعظمَ الناسُ من مُبالغاتك مُستصْغرا. ثمّ لله أنتَ إذا أخذت في توقير الأئمة الذين أخَذْتَ عنهم، والصدور الذين تَلَقّنْتَ فنونَ علمك منهم، وإطنابك في وصفهم بمحاسن تمتلئ منها المسامع، وفضائل ترتجّ بها الأنْدية والمجامع. ومن كان بالصفة التي ذكرتُها لم يُستغرب منه أن ينظر إلى محلّ من أخذ عنه العلمَ بعين الإجلال، ويرى الذهاب عن توقيره عين الغواية والضلال، وسبب تخلية الله له من يده وخذلانه، وعلّة شقائه في الدارين وحرمانه. وأن يعرف حقّه مُحلّقاً على هام حقوق الأمّ والوالد، وتراب أخمصه مُفدّياً(*) بأعلاق الطارف والتالد، لعلمه أنّ الرجال بقلوبهم، والقلوبُ موتى مالم تُحيها البصائر (٣ ب) والألباب، والبصائرُ والألبابُ حيْرى مالم تهدها العلوم والآداب. فمن أفادَك علماً فكأنّما أوْجدكَ فائدةَ وجودك، وأطعمكَ ثمرةَ حدوثك، وإلاّ فسواءٌ أنتَ والعدم، وعلى أبويك أن يطول منهما الندم. ولمّا عريَ من عريَ من تلك الصفة، ونأى بجانبه عن العدل والنَصَفة، وتاه في سبل الغيّ تيه الهائم، ورضي لنفسه أن يعيش عيشَ البهائم، فلم يرفع رأساً بآمر المروّة، ولم يلحظ بمُؤْخِرِ عينه وَجْهَ الفتوة، وتساوى عنده الخير والشرّ، والعقوق والبرّ، والغدر والوفاء، والصلةُ والجفاء، والطيش والرجاحة، والحياء والوقاحة، والإحسان والإساءة، والمسرّة والمساءَة، والإسخاط والإرضاء، والعتاب والإغضاء، والتلطّف في المقال، والتعجرف في النّقال(١٢)، وعدم في الجملة الإنسانية وما يتبعها،

[(*) في الأصل: «منديّا». / المجلة].

وفقد الآدمية و ـا يُشَيِّعها، تبع ذلك أن استهان بالعلم، وربّما فضَّل عليه الجهلَ بجهله، وتمنّى أن لم يكن ملحقاً بأهله، لأنّه لم يَشْدُ ماشدا إلاّ ليتسلق به إلى المطامع الدنيّة، ويتطوق إلى الأغراض الدنيوية، فإذا رأى الجاهلَ المصمتَ قد سبقه إلى الحظ (٤ آ) فاشتمل عليه، وجمع دونه على الحُطام يَدَيْه، سَوَّل له الشيطانُ أنّ العلمَ هو السببُ في حرمانه، ولولا العلم لكان أجَدَّ أبناءِ زمانه، لاجَرَمَ أنّ حقّ أستاذه كان عنده من الخافية في مهبّ الريح أخفّ، ومن لاشيء في العدد أطفّ.

أعاننا اللهُ على ما أخذنا به أنفسنا من برٍّ من أخذنا عنه، وعلى شكر ماأولانا بذلك من البركة الظاهرة، والنعمة المتظاهرة، وصبَّرنا على جفوة من أخذ عنّا، وبَصَّرَهُ – بما زوى عنه من بركته ونعمته، وما عرّضَهُ له من عقابه ونقمته – الفَرْقَ بين الأمرين، لعلّه يقيس ويعتبر، ويُبصر ويستبصر.

هذا وقد ألقيتُ إليك عشر كلمات في النصيحة صدرت عن قلبٍ لك وامق، وصدرٍ بمودّتك واثق. فتدبَّرْها تَدبُّرَ أمثالك، ولا تُخلِها من حُسْنِ تقبلك وامتثالك.

الكلمة الأولى

إنّ اللهَ جلَّت قدرتُه، ودقّت حكمتُه، كما كرَّم بني آدم وفَضَّلهم على كثيرٍ ممّن خَلَقْ، وجعلهم أحقَّ بالفضلِ والكرامةِ وأخْلَقْ، كذلك فَضَّلَ بعضَهم على بعض تفضيلا، وفصَّل مراتِبَهم ومقاديرهم (٤ ب) تفصيلا فلم يرفع منزلةً فوق منازل الأنبياء، ولم يُعْطِ أحداً ماأعطاهم من العُلُوّ والسناء. ثُمّ جعلَ حَمَلَةَ العلوم والحِكم، ورثتهم دون جميع رجالات الأمم. وكانت الحكمةُ البالغة ومقياسها، والقسمة العادلة وقُسطاسُها لاتقتضيان غير ذلك، لأنّ شأنَ الأنبياء غير شأنِ الأكاسرة، وحالَهم خلاف حال الملوك الجبابرة.

فمواريثُ أولئك أعراضُ الدنيا من أحجار الأرض وحيوانها، وما عَمروه من جنانها وبُنيانها. وأمّا الأنبياء فالعلم والحكمة تُراثهم، وحَمَلَتُها لامحالة وُرّاثهم، قياسٌ سويٌّ، وحكم ضَروري. فانظر في أيِّ منزلة وضع اللهُ العالِمَ، وكيف حَطَّ عن مرتبته – ماخلا الأنبياء – العالَمَ، ثم هات( )[١٣] وعِللك وهيهات. ولا عذرَ ولا علّة لك إلاّ إذا تكلفتَ من التأويل البعيد شططا، وتجشمتَ من الجدال والتعسّف خُططا. لِمَ لاتربأ بنفسك التي فَضَّلها اللهُ وكَرَّمَها، وأجَلّها وعَظَّمَها، عن أن تذلَّ لمن أَمَرَ اللهُ بإهانته وإذلاله، ونهى عن إكباره وإجلاله ولِمَ تَزُور ولا تستزير، ومَزُورٌ قِردٌ أو خنزير وما بالُ العالِم يُرى على بابِ الظالم (٥ آ).

الكلمة الثانية

ماخَلَقَ اللهُ فماً إلاّ تكفّل برزقه قَبْلَ خَلْقِه، وكتبَ على خَلْقه أن لايُلِمَّ بغير حَقِّه. فلا بُدَّ للمؤمن بالله وبصدق مقالته، من الوثوق بضمانه وكفالته، حتى لايُشْرِعَ باباً إلاّ شارِعَه، ولا يكرع في مشارعه. وأن لايطلب ولا يُصيب، إلاّ ماستيقن فيه الحِلّ والطيب. مع عِلْمِهِ أنّ نَفْساً لن تُزْهَقَ قبل أجَلِها، ولن يكسر أحدٌ طرفاً من أُكْلِها. وإنّ حِرْصَه على التفسّح في الملابس والمطاعم، وتهالكه على الرحل الخصيب والعيش الناعم، وجَسارته لذلك على الله وعلى تعدّي الحدِّ الذي نَصَبه، لا يُجدي عليه إلاّ التعرض لمقت اللهِ وغضبِه، من غير أن يصل مما حرص عليه إلى أَرَبِه. فكم ترى حريصاً على الحرام أينَما توجّه في طلبه حُرِم، وأيما خِلْفٍ[١٤] هَمّ باستدرارِه صُرِم[١٥]، مَمْنوٌّ[١٦] أبَداً بضيق مجاله، مشفوهة[١٧] مواد مناله. قد أعيا عليه القشرة والقوت، وهو عند الله والناس ممقوت.

ولعلّ من رَفَلَ من أكَلَة الحرام في أذيال أحواله، ودرّت له لِقاحُ أموالِه وبالت عليه الدنيا[١٨]، ونالته مايحبّ ويَهْوى (٥ ب) لو اختارَ طلب الحلال

لكان أحسن حالاً، وأكثر مالاً، ولطاع له المرتع، ولطابَ له المكرع ولكنّه أساءَ لنفسه الاختيار جَهلاً، فلا لقي مَرْحباً ولا أهلاً .

وإنّ من المصائب الفاجعة المثكلة، والخطوب الملتبسَةِ المُشْكِلَةِ، ما يرتزق العالم من منائح الظلَمة وأياديهم، ويتلوّث به من غسالات أيديهم، ولقد كشفَتِ الحقيقةُ الغطاءَ، وكشط الإنصافُ اللّحاءَ، ولكنّه يتمحّل لتغطية الحقّ بعد ماوضح، ويتعمّل في كتمان النهار وقد أصبح. فاتّقِ اللهَ في رزقك، وارفق بوجوهِ رِفقك، فإنّ للرزقين أثراً في الأنفاس والأفكار، ونصيباً من الجنّة والنار .

الكلمة الثالثة

الناسُ بعضُهم ببعضٍ موصول، وأمر بعضهم إلى بعضٍ موكول. ومكتوبٌ عليهم أن يتقارضوا المنافع والمعونات، ولا يتمانعوا مافي أيديهم من الماعونات. وإذا عُدّت المنافع وهي أصنافٌ وأنواع، وفُصلتِ المعادن وهي أخيافٌ[١٩] وأوزاع[٢٠]. وذُكِرَ السلطانُ وما ينفعُ به الناسَ من جمعهم على كلمةٍ ناظمةٍ، وعطفهم على ألفةٍ عاصمةٍ، ومن سياسةٍ (٦ آ) لأُمورهم وقراعة دون ثُغورهم، ومحاماته عليهم من عادية المُتَحيِّفِ، وذيادهِ عنهم ضِرارَ المتخطفِ، وسُمّي ماللسُوقةِ في أعمالهم وحرَفهم، وماهم عليه في مضطربهم ومتصرَّفهم من المصالح الجمّة التي لايكتنهها صفة الواصف، بل لايكتَنِفُها معرفة العارف، ثم نظر إلى منفعة العالِم، وُجِدَتْ أعظمَ من تلك المنافع بحذافيرها، وكان أقلّها أجدَى من تلك المرافق وجماهيرها لثلاثة معانٍ: أحدها: أن العالِمَ لمّا كانت طبقَتُهُ أرفعَ الطبقات كانت صناعتُه أرفعَ، ومحصولُها أنفعَ .

والثاني: أنّ سائر المنافع لايفتقر كلّ أحدٍ إلى كُلّها، ومن الناس من

لاحاجة به إلاّ إلى أقلّها، وإلى العِلم هم على بكرة أبيهم فقراء عالة، ليس لأحدٍ منهم بدٌّ منه ولا محالة .

والثالث: أنّ منفعة العلم باقية لاتضمحلُّ، وثابتةٌ لاتستقلُّ، مأمونة أنْ تتحول أو تتغيّر، لازمة لصاحبها أيّةَ سَلَك وحيث سُيِّر. تصحبُه في الأولى والآخرة، ولاتفارقُه على الغبراء والساهرة .

وإذا كانت منفعتُك على هذه الصورة، فاجعل ساعاتِك على بَذْلها مقصورة، وكن (٦ ب) بنتائج عقلك أجود من حاتِم طيِّىء بعقائله، وبذخائر فضلك أسخى من حارثة بن لامٍ بفواضله. واغدُ أحرصَ على اقتباس علمك من الجاثي بين يديك على اقتباسه، واستأنس بتعليمه وإفادته على أضعاف استيناسه، وأصبحْ كالرائد العَجلان في طلب رُوّاده، وكالوارد الظمآن في ابتغاء وُرّادِه. وإن أمكنكَ التواضعُ للمشي إليهم، والهجوم للإفادة عليهم، فافعلْ فإنّ ذاك لايَرْزَؤك حكمةً وعلماً، ولا يبخسك حظاً ولا قسماً. بل أنتَ حينئذٍ أحكم وأعلم، ولا تَقُلْ «في بَيْتِه يُؤتى الحَكَمْ»(٢١).

الكلمة الرابعة

لكُلِّ شيء معنى لازم، وهو موضوع له ومفطورٌ عليه، وطارئ يُشيّعه ويطأ عقبَيْه. والمعنى اللازم بكون العلم مُعَلّما ومُتَعَلّما، أن يكون إلى العمل الصالح وإلى ماعند اللهِ سُلّما. وأمّا حصول التقدم به والرياسة في العاجل، والتوثّب على المراتب والمنازل، فمن طوارئ هجائجه وفوائده، وعوارض ثمراته وعوائده. إلاّ أنّ ذاك هو الذي يتتبعها ويستحرّها(٢٢)، ومتوليه هو الذي يمتري(٢٣) أخلافَها ويستدرّها. وإنّما تقبل هذه التوابع تامة السوالف (٧ آ) والمناكب، طويلة القُرون والذوائب، إذا لم يخطرها الرجلُ بباله، ولم يجعل طَلَبَها من أشغاله، وجعلَ الغرضَ الأصليّ مَرْمى هِمتّه، ومناط شَرَهه

ونَهْمَتِه، فقعَد مرتقباً لفضل الله وجزيل ثوابه، وعلى مرصاد الفوز في منقلبه ومآبه. ومن ورائه شرفُ الدنيا يركضُ على أثره طالبا، ويُجَدِّدُ السَّعْيَ ليلحق به دائبا. فاقصِد بكلِّ جلوسٍ لِدَرْسك تجلسُه، وكلِّ درسٍ في مجلسك تدرُسُه، وبكُلِّ مسألةٍ تحفظها، وكلِّ موعظة تَعِظُها، وكلِّ فكرةٍ تُرَدِّدُها في طيِّ جَنانِك، وكُلِّ كلمة تُجْريها على أسَلةِ لسانك، وَجْهَ رَبِّك الذي إليه إيابُك، وعليه حسابُك، وفي يده ثوابُكَ وعقابُك فإنَّكَ إنْ فعلتَ أدَّيْتَ ماعليك من المفترض، وأصَبْتَ شاكلةَ الغَرَض، وإن منعتكَ نفسَها الرياسةُ الفانيةُ، فقد ادَّخَرْتَ لِنَفْسِكَ الملكَ السَرْمَدَ، والنعيمَ المُخَلَّد .

الكلمة الخامسة

ملاك أمْرِكَ أيُّها الحَبْر النُعماني، والشارع الربّاني، أن تمزج إفادتك بمناصحة من يقرأ عليك، وتبذل الشفقة للجاثي بين يديك، فإن الإفادة إنّما تكون (٧ ب) بهما إفادة، وإلاّ كانت صَلِفَةً[٢٤] رَعّادةً .

وأن تتشبه بالحمامةَ في رفرفتها على الفرخ وعطفها، ونيقتها[٢٥] إذا زَقَّته ولُطْفِها، وماهي جادّة فيه من برّه وصلته، وتحصيل مافي حوصلتها في حوصلته. فلا يفارقك إلاّ والمستفاد مُتَفَهِّمٌ مُتَلَقِّنٌ، والمقتَبِس مُتْقَنٌ مُتَيَقِّن. قد انزاحت عنه كلّ شبهة وإشكال، ولم يشبه ماطرق سمعه طارق خيال. فكائن مِمّن يقعدون إليك كما قعدوا ينهضون ويُقبلون عليك بوجوههم وكأنهم مُعرِضون لأنّهم لم يتقبلوا علمَ ما أسنَدْتَ ظهركَ لتعليمه، ولم تُحِطْ أفهامُهُم بما تَصَدَّرْتَ لتفهيمه. وما ذاك إلاّ لأنّ جهارةَ صوتك مسموعةٌ، ونصيحتك في ذات الله ممنوعةٌ. وإنك غير عاقد هَمَّكَ بمعنى الصناعة ولكن بالاسم، وتَحْقيقِها لكن بالعادة والرسم. فإنّ القعودَ بصدد الرياسَة يُغنيك، وما سوى ذلك لا يَهُمُّك ولا يعنيك. ولو نصحتَ لما باشَرْتَ تعليقاتهم، وما يتلقفون منك بتفقّدك، ولَوَكَّلْتَ بأورادِهم عليها عيناً كالئةً من تعهدك، حتى

تعلم هل فوائد علمك (٨ آ) مأخوذة، أم هي وراء الظهر منبوذة؟ ولأَبَيْتَ عليهم أن ينتقلوا من شيءٍ إلى شيء إلاّ بعد إحكامه، وأن يتركوا باباً إلى بابٍ إلاّ بعد إتمامِه، إذَنْ لأفاض الله بركاتِ نُصحك وإشْبالِك[٢٦] على صفحات أحوالهم وأحوالك. ولَنَشأ لك منهم في المُدَد القلائل، والأزمان والأوقات غير الأطاول، بنو صِدْقٍ يوفون بعقودك ولا ينكثون، ويرثون خزائنَ حكمتك ويُورثون.

الكلمة السادسة

الإنصافَ الإنصافَ في ساعات مجادلتك ومناظرتك، وفي أوقاتِ مجاوبتك ومحاورتك. ومتى عَنَّ لك ماصحَّ عندك أنه باطل، ورأيٌ عن حِلْيَةِ التحقيق عاطل. ولخصمك ماوَضَحَ لك أنه الحقُّ الأَبْلَج، والطريق المنهج، فلا يَسْتَهْوِيَنَّكَ هوى نفسك، ولا يَستَغْوِيَنَّكَ الظهور على ابن أنسك، وإيَّاك والانتداب لنصرة مقالك، والإغراق في مرائك ومحالك، والرمي بالحصى من وراء مُحالك، والانتصاب لهدم ماوطّد، وفَسْخ ماوكّد، وتضعيف ماقوّى، وتعويج ماسَوّى، بِخَطَلٍ منك وسلاطة لسان، وجريان وفضلٍ من بيان، وتمشية تبرز السَّقيم (٨ ب) في معرض الصحيح، وتمويه يُلحق الهجين بالصريح. واعلم أنَّ نفسك إنْ زيّنت لكَ ذلكَ فَهْيَ من خصمكَ لكَ أخصمَ، ولِظَهْرِكَ في الحقيقة أقصم. فبالتسليم للمحقِّ ألجمها وبكّتْها، وألقمها الحجرَ بالإذعانِ له وأسكتْها، وَضَعْ لعزِّ الحقِّ خدَّكَ ضارعاً، واخفض له جناحك خاضعاً، تُدرك ماهو من الغلبة أعلى وأفضل، وأحسن في الأحدوثةِ وأجمل، ولهوى النفس الأمَّارةِ بالسوءِ أقمع، وللمثوبة عند الله أجمع، وَمَنْ تذلَّلَ للحقِّ فقد اجتلبَ العزَّ بأصبارِهِ[٢٧]، ومن تَعَزَّزَ بالباطل فقد اجتلب الذُّلَّ بأعْيارِهِ[٢٨]. والله أعلم.

الكلمة السابعة

أُعيذُكَ بالله من داءِ الضرائر، وهو المنافسة من أهل المحابر والمنابر، وما جرَّ بِهِم إليه منَ التجاذب لأردية التكاذب، ومن التغالب على الرُتَب والتكالب، ومِنْ بَغْيِ بعضهم على بعض بالنقصِ والزراية، وبَتِّ القضاءِ والشهادة بدقّة الفهم والدراية، والتلقيب بالعاميّ من هو أفقَهُهُم وبالكَوْدَن(٢٩) من هو أفرَهُهُم، والسَعْيِ الواصِبِ في النكاية والضِرار، والسبِّ والاغتياب (٩ آ) آناء الليل والنهار، عند التلاقي إخوانٌ على سرر متقابلون، فإذا افترقوا فأبناء حَرْبٍ متقاتلون. إذا أصابَ أحدَهم متاعٌ من الدنيا قليل، أو نصيبٌ من وُلاتِهم ضئيل، لم يبق للباقين روحٌ ولا جسد، إلاّ وقد أكَلَهُما الغيظُ والحسَد، وما ذُكر أحدهم بخيرٍ إلاّ اضطربوا واضطرموا، وتكلموا في معناه فَجرَّحوا وكَلَموا، ولم يُبالوا أن يُشهِرُوه بمشاتمَ ومطاعِنَ، ويُشيروهُ بمقابح وملاعن. ويفعلوا ماينقلب معه الذكرُ بالخير نداءً عليه بالشرّ وتسجيلاً بالمعاب الذي لايُطمس رقمهُ أبَدَ الدهر، لأنّ ذاك أكثر مايجري في المحافل الغاصَّة، والمجالس الجامعة للعامّة والخاصة، فكأنَّما لِيُسْمِعوا الحجيجَ ماتواصفوه من عُواره، وكأنّما صَوَّتوا على جبل عرفاتٍ بِسَوْءته وشَواره(٣٠). فهذه كلُّها نتائج المنافسة وهي أُمُّها، ومُسْتَنّاتُها التي إليها انصبابُها وأمُّها.

فَرِّضْ نفسَكَ بالتَحفُّظِ منها كمايتحفَظُ الأمْلَسُ من الدَبر(٣١)، والتَطيُّر من شؤمها كما يتطيّر المُقبل من المُدْبِر، واعتقادِ أنها عند الحَشوة والرعاع هجنةٌ، وأنّ (٩ ب) وقوعَها بينهم فساد وفتنةٌ. فكيف بالذين هم قِدوة الناس وأُسْوتُهم، وعن آرائهم يَصْدُرُ رجالُهم ونسوتُهم وعلى عَذَبات ألسنتهم وأسنان أقلامهم يدورُ التمييز بينَ حلالهم وحرامهم والله أعلم.

الكلمة الثامنة

لا يُقضى لعقولٍ بالحصافة والرصانهْ، إلاّ شواهد من الوقار والرزانهْ، وبما يُعْهَد من تناسب حركاتهم وسكناتهم، واستقرارهم عند إطلاق الحُبى على مكناتهم، وإطفائهم لنيران الحَرَد والغضَب، وتفاديهم من الضجر والصَخَب، وتبسّمهم عند القهقهة والاستغراب، وقلة تعجبهم عند ترقيص الرؤوس والاستعجاب. فإنّ العقلَ إذا طاش ظهر الطيشُ في المعاطف، وأثّرَ في المناكب والسوالف. وكثُر الضحك والضجاج، وجاء المحك واللجاج. والحَرَدُ من أدنى موجب، والإعجابُ بغير معجب.

وكان الرجل مُتهافتاً لا يتمالك، ومتفككاً لا يتماسك وما سَمّتْهُ العَرَبُ عقلا ولا حِجْرا، إلا لأنّه يَعقل عقْلا ويحجر حَجْرا. فعليكَ بِسَمْتِ المشايخ في التوقر والتزَمُّتِ، وحُسْنِ التماسك (١٠ آ) والتثَبُّت. وعقد الحبوة وإن حُلَّت الحبى، والتصبّر وإن بلغ السيلُ الزُبى. والاحتمال للأذى، والإغضاء على القذى. وإن هاجَتْ زبراؤك[٣٢] فلا تضيقَنَّ عليك غبراؤك، وأدركها بالحلم، وسكّنها بالكَظْم، ولا تضجر فليس الضجر من أُبَّهة الشيوخ، ولا من صِفة الموصوفين في علمهم بالرسوخ وإنْ استطعتَ التصَوُّنَ منه في مقامات الجدال، والتحفُّظ عند الجواب والسؤال، فجاء ماجاء منك ووجهُكَ مُتَهَلِّلٌ مُتَطَلِّق، ووميضُ ثناياك مُتَأَلِّق، فما أجملها من خَصلةٍ تبذُّ سائرَ الخصال، ويالها حَسَنة تُرَدّي أردية الجمال.

الكلمة التاسعة

أحقُّ الأمانات بأنْ يؤدِّيها الأميرُ، وأولى الضمانات بأن يَفي بها الضمير أمانتك التي أنتَ لأعْبائِها مُتَحَمِّل، وضمانك الذي أنت بالوفاء به مُتَكَفِّل. فراقبِ اللهَ فيما استودعك من كرائم ودائِعه، وائتمنَكَ عليه من

ذخائر شرائعه. فلا تضعها إلاّ حيث تكون من الآفات محفوظةً، وبأعين التوقير والاعتداد ملحوظةً. وحُط قواصيها بحامٍ من الاحتياط والترفق (١٠ ب) واضمم حواشيها براعٍ من التأنّي والتأنّق. وأذْكِ عليها عُيوناً ترقبها من خطفات التحريف[٣٣]، وتحامي عليها من وثَبات التجديف[٣٤]. واعلم أنّ المُتصَدّي للفتوى قريبٌ من المَتوى، إلاّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ من أن يُفتي على عمياء، وأن يخبط خبطَ عشواء. وتجنّب الفطير غير المخمَّر، ولم يُفْتِ إلاّ بالمحتاط فيه المتدبَّر، وإلاّ فهو مُحَلّلٌ للحرام، مُحَرِّمٌ للحلال، سالكٌ بالمسلمين أوْدِيَةَ الضّلال .

الكلمة العاشرة

من أُمّهات خبائثِ الأفعال، ومِمّا لايصدر عن ذكورة الرجال، تكلّف الإنسان ورياؤه، الذي يمسخُ وُجوهَ الخير مَسْخا، ويَنسَخُ آياتِ البِرّ نَسْخا. ويعمل في الطاعات عملَ شُعلة القابس، إذا تعلقت بالحَطَبِ اليابس. ويأكل أوساط الأعمال حتى يَدَعها صفرا، ولُبابها إلى أن يُخَلّيها قِشْرا. وما ظنُّك بشيءٍ ماخامَرَ حَسَنَةً إلاّ قَلَبَها سيّئة، ولا طاعةً إلاّ رَدَّها مَعْصِيةً، بل ارتكاب السيئة في العلانية والجهار، والمبادأة بالمعصِية في وَضَح النهار، خيرٌ من طاعة يُرائي بها عاملُها، ومن حَسَنَةٍ (١١ آ) لم يُرد بها وَجْهَ اللهِ فاعلُها. ومن خُبْثِه أنّ له مَدَبّاً خفيّاً تحت كل عملٍ تليه، ومَسْرىً لطيفاً مع كُلّ صنيع تأتيه، وكأنّه من أدقّ مادبّرهُ الشيطانُ في كيد العالَمين، ومن أَلْطَفِ مازوّره في المكر بالعالِمين. فاستعمل الجدّ كلّ الجدّ في التوقّي والتحفظ، ولا تُفَرِّط في أخذ الحذر والتيقظِ، لئلاّ يفجأك من جانبٍ لاتحتسبه، ولا يُبَيّتك من كمينٍ لاترتقبه. فَرُبَّ هَنَةٍ هي عندك هَيّنة الخَطْب، ولعلّها حلّت من خطاياك محلّ القُطب. وطَهّر أردانك بالتورع والتعفّف، من لطخ المُراءاة والتكلّف. حتى إن استطعتَ – وما أظنك تستطيع – لأنّ المرءَ لأَمْرِ العادةِ سامعٌ مُطيع، أن

لاتستتبع من الحافّين حولك مثل الجحفل الجرّار، والعسكر الكرّار، وليس حين تعاوُنٍ على كفاية خطبٍ كبير، ولا يوم إيقاعٍ بعدوٍّ مُغير، ولا ساعةً من ساعات الظفر بالقِرى، والدعاء إلى الجَفَلَى[٣٥] ولا النَّقَرى[٣٦]. ولكن ليُقال ماأكثر أتباعَهُ وأكثف أشياعَهُ. وأن لاتَستَهْتِر بِعظَم العمامَةِ وسعة الأكمام، ليتضخم في العيون حجم الشيخ الإمام. وأن لاتتكلف على منبرك اعتصار[٣٧] (١١ ب) الدَّمْعَةِ على سبيل الرياء والسُمعة. وأن لاترى في مدرستك فاترَ الرغبةِ والنشاط، قليل الاستربال والانبساط، ناطقاً كالصامت، جامداً كالمُخافت. فإذا سمعت بحفيف الموكب المار تحركتَ وانتعشتَ، ونَبَتَ لك عُرْفٌ وانتفشتَ، ورفعتَ من صوتكَ وأصوات أصحابك، وما شئت من صرختك وإجلابك، لتسمع المارّةُ ذلك الزجل واللجب ويقضي من كدّك واجتهادك العَجَب. فافعل واعمل على أن تخلص لله عملك، وأن لاتنوطَ إلاّ بعروَتِه الوثقى أمَلَك، واجعل نيّتك واحدة في جميع ماأنت قاعدٌ بِصَدَدِهِ، وقائمٌ على رَصَدِه .

تمّت يوم الخميس من سلخ شهر الله الأصم رجب سنة تسع وثمانين وخمسمئة على يدي (   )[٣٨] المضيع لعُمره محمد بن أبي يوسف بن عمر بخطه حامداً الله تعالى ومُصلّياً على رسوله المصطفى محمد وآله مصابيح الهدى .

الهوامش

(١) [المَرْخُ والعَفَار: نوعان من الشجر ومن أمثالهم: في كل شجر نار.. واستمجد المَرْخُ والعَفَار، ومعناه: استفضل، أي استكثرا من النار، كأنهما أخذا من النار ماهو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما. ويقال: لأنهما يُسرعان الوَرْيَ، فشبّها بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد. اللسان (مجد) ومجمع الأمثال ٢/ ٤٤٥./ المجلة] .

(٢) الطمرُ: الثوب الخَلَقُ .

(٣) مَهْو : بطن من عبد القيس. وفي الأمثال: إنه لأخْيَبُ من شيخ مهوٍ صفقةً. قال: وهم حيٌّ من عبد القيس كانت لهم في المثل قصة يسمج ذكرها. انظر جمهرة الأمثال ١/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٤) الحَفَفُ: عَيْشُ سوءٍ وقِلَّةُ مال .

(٥)الضَّفَف: كثرة العيال. أو الضيق والشدة. القاموس (ضفف) .

(٦) في البيتين طمس شديد وظهرت منهما بقايا كلمات تَرَسَّمْنَاها، واجتهدنا في إقامة الوزن والمعنى .

(٧) الرواهش: العَصَبُ التي في ظاهر الذراع، واحدتُها راهشة وراهش . (اللسان : مادة رهش).

(٨) من لفظة (أعجب) وحتى لفظة (وأنك) سقط من المتن فدوّن في الهامش بخط الناسخ، وبعدها في الهامش كلمتان لم تظهرا في المصورة بوضوح.

(٩) المخارف: جمع مَخْرَفة وهي سكّة بين صَفَّين من نخل يخترف من أيهما شاء، أي يجتني .

(١٠) مائح: المَيْحُ أن يدخل البئر فيملأ الدلو وذلك إذا قلّ ماؤها، ورجلٌ مائح من قوم ماحة .

(١١) مائح: امتاح فلانٌ فلاناً إذا أتاهُ يطلبُ فضلَهُ فهو ممتاح.

(١٢) النِّقال: الرِّديان، وهو بين العدو والخبب .

(١٣) سقوط كلمة في المتن، لم يظهرها التصوير مقروءة في الهامش .

(١٤) خِلف: ضرع الناقة .

(١٥) صُرِم: قُطِع .

(١٦) مَمْنوٌّ: مُجازى .

(١٧) مشفوهة: المشفوه: القليل. وماء مَشْفوه: ممنوع من ورده لقلته. والمشفوه: الذي أفنى مالَهُ عيالُه ومن يقوتُه .

(١٨) وبالت عليه الدنيا: أي سخرت منه حتى نام عن طاعة الله.

(١٩) الأخياف: الضروب المختلفة في الأخلاق والأشكال .

(٢٠) الأوزاع: الضروب المتفرقون، ولا واحد له.

(٢١) قال في الفاخر ص ٧٦: هذا شيءٌ يتمثّل به العرب على المزح ولا أصل له.

وانظر المثل في كتاب الأمثال للسدوسي ص ٤٧ وكتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم ص ٥٤ وجمهرة الأمثال ١/ ٣٦٨ و ٢/ ١٠١ والميداني ٢/ ٧٢ والمستقصى ٢/ ١٨٣ واللسان مادة (حكم).

(٢٢) استحرَّ: بمعنى اشتدَّ وكثُر.

(٢٣) يمتري: مَرى الشيءَ وامتراه: استخرجه.

(٢٤) صَلِفَة: السحابة قليلة الماء كثيرة الرعد.

(٢٥) نيقتها: النيقة من التنوّق، وتنوق فلان في مطعمه وملبسه إذا تجوّد وبالغ.

(٢٦) الإشبالُ: التعطف على الرجل ومعونته.

(٢٧) اجتلبَ العزَّ بأصباره: أي تاماً بجميعه (اللسان مادة صبر).

(٢٨) اجتلبَ الذُلَّ بأعياره: أي بأوتاده، وفي المثل «أذلُّ من وتد».

(٢٩) الكودن: البرذون الهجين، وقيل هو البغل.

(٣٠) شَواره: أي عورته.

(٣١) الدَبِر: الدابة أو البعير المصاب بِقَرْحَةٍ في ظهره أو خُفّه.

(٣٢) هاجت زبراؤك: أي هاج غضبك.

وزبراء خادمة كانت للأحنف بن قيس، وكانت سليطة فكانت إذا غضبت قال الأحنف: هاجت زبراء، فصارت مَثَلاً لكل إنسان إذا هاج غضبه (انظر اللسان مادة (زبر)).

(٣٣) التحريف: التغيير.

(٣٤) التجديف: الكفر بالنعم.

(٣٥) الجَفَلى: الجماعة.

(٣٦) النَقَرى: أي دعوتهم دعوة خاصة. قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

(٣٧) في المخطوط: الاعتصار.

(٣٨) في الموضع كلمة لم أوفق لقراءتها [لعلها: «المنيب»/ المجلة].

ماتلحن فيه العامّة في التنزيل

تأليف

نور الدين، جامع العلوم، أبي الحسن علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي

(ت ٥٤٣ هـ)

حقّقه وعلّق عليه

الدكتور محمّد أحمد الدّالي

كان أبو الحسن[١] علي بن الحسين الأصبهانيُّ الباقوليُّ الملقب بـ «جامع العلوم» و «نور الدين» و «عماد المفسرين» = أحدَ كبار أئمة العربية وعلوم القرآن .

ألّف في علوم العربية والقرآن بضعة عشر كتاباً، لم ينته إلينا منها، فيما أعلم، إلا ثلاثة كتب هي «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات»، و «الجواهر» و «شرح اللمع».

(١) سلف التعريف به في مقالة لي منشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٦٤ جـ ٣، تموز ١٩٨٩ ص ٣٩٢– ٤١٦ وعنوانها «جولة جامع العلوم الأصبهاني مع أبي علي الفارسي في الحجة». وبسط ترجمته وذكر مظانها في مقدمة تحقيق كشف المشكلات وإيضاح المعضلات ص 36 - 7 .

وكان إمام علوم العربية والقرآن في عصرنا شيخنا العلامة الحجة أبو عبد الله أحمد راتب النفاخ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق- بَرَّد الله مضجعه، ونوَّر ضريحه، ورحمه رحمةً واسعة- أولَ من عرَّف الناس في عصرنا بجامع العلوم في تحقيقه النفيس الذي كتبه عن كتاب «إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج، تحقيق نسبته واسمه» في مقالتين نشرتا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق[١]، وانتهى إلى أن صاحب هذا الكتاب هو «جامع العلوم الأصبهاني»، وأن الأرجح في اسمه أن يكون «الجواهر»[٢].

وأشار عليَّ- جزاه الله خير جزائه، وإشارته حُكْم- بتحقيق كتاب «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات»، وتفضل عليَّ بمصورة عن مخطوطته التي بحوزته وهي مخطوطة مكتبة مراد ملا .

انتهى إلينا من هذا الكتاب، فيما أعلم، أربع مخطوطات، أتيح لي الحصول على مصورات عن ثلاث منها، حققتُ[٣] عنها الكتاب. أما المخطوطة الرابعة التي تحتفظ بها مكتبة الجامع الأحمدي بطنطا فلم يتح لي الوقوف عليها. وطبع الكتاب بمجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٩٥م.

ثم منَّ الله عليَّ بالوقوف على مصورة عن هذه المخطوطة بتاريخ ١٥ شوال ١٤١٧هـ = ٢٣/ ٢/ ١٩٩٧م. وقد تكرم أخي الصديق الدكتور

---

(١) الأولى في م ٤٨ جـ ٤ عام ١٩٧٣، والثانية في م ٤٩ جـ ١ عام ١٩٧٤ .

(٢) ثم قطعتُ بأنه الجواهر غير شك في مقالة منشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٦٦ جـ ١ عام ١٩٩٠ ص ٧٧- ١٠٦ وعنوانها: «كتاب إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج هو كتاب الجواهر لجامع العلوم الأصبهاني».

(٣) كان تحقيق «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات» شطراً من رسالة تقدمت بها إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة دمشق، والشطر الآخر دراسة مطولة لجامع العلوم وآثاره، وقد نوقشت الرسالة بين يدي الجمهور يوم الخميس ٤ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ = ٢٤ كانون الأول ١٩٨٧، ونلت بها درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف، والحمد لله .

فوزي محمد أمين مصطفى أستاذ الأدب العباسي المساعد بجامعة الإسكندرية فأهداني مصورة عنها، وهي في الكتبخانة الأحمدية برقم ١٦ خاص وبرقم عام ٣٦٣، وهي في ١٢٩ لوح (٢٥٨ صفحة) .

وقد كتبت بقلم نسخ معتاد حديث، ولم يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وفيها غير قليل من مظاهر التصحيف والتحريف. وليس هَهنا موضع بسط الكلام في وصف النسخة .

ينتهي الكتاب في هذه المخطوطة في اللوح ١٢٦/ ٢ (ص ٢٥١)[١]، واسمه فيها «كشف المشكل في نكت المعاني والإعراب وعلل القراءات وعلل القرآن [كذا] المروية عن الأئمة السبعة»[٢] .

واشتمل اللوح ١٢٧/ ١ و ١٢٧/ ٢ و ١٢٨/ ١ والأسطر العشرة الأولى من اللوح ١٢٨/ ٢ (ص ٢٥٢- ٢٥٥) على مختصر في «ماتلحن فيه العامة في التنزيل» وآخره: «تمّ المختصر بعون الله وتوفيقه، وصلى الله على محمد وآله أجمعين. مسألة قوله تعالى...». فجاء عقب هذا المختصر في بقية اللوح ١٢٨/ ٢ واللوح ١٢٩/ ١ و ١٢٩/ ٢ (ص ٢٥٥- ٢٥٧) مسائل في علم العربية والتفسير .

وهذا المختصر فيما تلحن فيه العامة في التنزيل، وهذه المسائل لصاحب «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات» جامع العلوم الأصبهاني. وهما أثران من آثاره سلما من عوادي الدهر، يضافان إلى ماذكرته في مقدمة كتابه «كشف المشكلات وإيضاح المعضلات» ص 49-36 من آثاره .

---

(١) كان ينبغي أن يكون ٢٥٢ لكن من تولى ترقيم صفحاته لم يدخل صفحة العنوان في ترقيمه.

(٢) انظر الكلام على اسم الكتاب في مقدمة تحقيق كشف المشكلات وإيضاح المعضلات المطبوع في المجمع ص 97-94 .

واطمئناني إلى أنهما أثران من آثار جامع العلوم مستندٌ إلى معرفة بأسلوبه فيما انتهى إلينا منها، وإلى أدلة مستخرجة منهما، فمن ذلك :

١– أنّ صاحب المختصر ذكر فيه في رقم [١٨] أنّ إشباع الدال في «العادِيات» ووصلها بياء لحنٌ. وهذا شيء انفرد بذكره جامع العلوم في كشف المشكلات ١٤٧٣– ١٤٧٤ فيما أعلم .

٢– وأنه قال في كلامه على توجيه قراءة من قرأ ﴿جناتٍ﴾ في قوله تعالى ﴿نخرج منه حبّاً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان﴾ [سورة الأنعام ٦: ٩٩] = قال في رقم [٦]: «فهو منصوب محمول على أنشأ».

وليس لفظ «أنشأ» في سياق الآية. وقال جامع العلوم في الجواهر (إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ٥٢٠): «وقوله ﴿وجنات من أعناب﴾ محمول على معنى الإخراج، يبين ذلك قوله ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ [سورة المؤمنون ٢٣: ١٩]. وما في الجواهر يبين مافي المختصر كما ترى .

٣– وأنَّ في أسلوبه مظاهر لسليقة المعلم وهي شائعة في أسلوب جامع العلوم (انظر مقدمة تحقيق كشف المشكلات ص 14):

قال صاحب المختصر في رقم [٢١]: فما بالُكَ إذا قرأتَ...

وقال جامع العلوم في كشف المشكلات ٧٦٣: فما بالُكَ...

وقال صاحب المختصر في رقم [٣٠]: فخذها عن ممارسة وامتحان بهم

وقال جامع العلوم في كشف المشكلات ٦٧٨: خذها عن ممارسة...

وقال صاحب المختصر في رقم [٦]: وهو كما أعلمتُكَ

وقال جامع العلوم في كشف المشكلات ٧٦٤: هذا هو الصحيح كما أنبأتُكَ

أما المسائل التي جاءت عقب هذا المختصر ففيها ماهو أبيّن دلالة على أنها لجامع العلوم، وموضع الكلام على ذلك في مقدمة تحقيق هذه المسائل إن شاء الله. وحسبي ههنا أن أذكر ماجاء في المسألة [٦] منها، وهو: «مسألة [من إملاء الشيخ البارع] نور الدين الأصفهاني» اهـ . وقد علمت أن «نور الدين» مما لقب به جامع العلوم الأصفهاني (أو الأصبهاني، فكلاهما يقال).

موضوع «ماتلحن فيه العامة في التنزيل»

قال المؤلف في صدر هذه الرسالة: «هذه حروف من التنزيل الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه = تلحن فيها العامة، وقد كثر شغفهم بذلك، ولا تكاد تجدها منصوصاً عليها في كتبهم» اهـ. ولا أعرف أحداً ألف في لحن العامة في التنزيل .

ذكر المؤلف ثلاثين موضعاً مما تلحن فيه العامة. وأراد بالعامّة بادي الرأي عامة القرّاء لا الضابطين المتقنين منهم. و. اللحن: «الخطأ ومخالفة الصواب، وبه سمي الذي يأتي بالقراءة على ضد الإعراب لحّاناً، وسمي فعله اللحن»[١]. وهو ضربان: اللحن الجليّ واللحن الخفيّ[٢] .

أما اللحن الجليّ فهو «تغيير الحركات والسكنات وتصحيف الحروف وزيادتها ونقصانها»[٣] .

---

(١) عن التمهيد لابن الجزري ٧٦ .

(٢) ألّف أبو الحسن علي بن جعفر الرازي كتاباً في «التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي» منه مخطوطة في المتحف العراقي برقم ٣٧٦٧، انظر حاشية محقق كتاب التمهيد ص٧٨.

(٣) عن الموضح لابن أبي مريم ١٥٨. وقد ذكر الدار قطني في كتابه التصحيف طائفة مما صحفه بعض القراء أو حرفوه من ألفاظ القرآن، انظر تصحيح التصحيف وتحرير التحريف للصفدي ٨.

وأما اللحن الخفي فهو «تغيير صفات الحروف دون ذواتها»(١)، وذلك «مثل تكرير الراءات وتطنين النونات وتغليظ اللامات وإسمانها وتشريبها الغنة وإظهار المخفي وتشديد الملَيّن وتليين المشدد والوقف بالحركات كوامل»(٢) و «كالإفراط في التمطيط والتعسف في التفكيك والإسراف في إشباع الحركات وفي التشديد»(٣).

فأمّا ماذكره المؤلف من أمثلة **اللحن الخفي** فهو :

١ - إشباع الضمة والكسرة إشباعاً تتولد عنه واو وياء [رقم ١ و ١٨ و ٢١].

٢ - ترك إشمام ماحقه الإشمام [رقم ١٩].

٣ - همز مالا حظّ له في الهمز [رقم ١ و ٨، ١٠].

٤ - إبدال الهمزة واواً أو ياء فيما أطبقوا على همزه (رقم ٤، ٢٢).

٥ - التخليط في الياءات المحذوفة من الرسم والتي اجتُمع على حذفها في النطق أو إثباتها أو اختلف فيها [رقم ٢، ٣٠].

وأمّا ماذكره المؤلف من أمثلة **اللحن الجلي** فيرجع إلى تخليط القارئ وعدم ضبطه لقراءة من يقرأ بقراءته من السبعة أو العشرة، فمن ذلك أن يقرأ القارئ بقراءة أحد السبعة أو العشرة برواية مشهورة عنه فيقرأ حرفاً خارجاً عن قراءات هؤلاء = أو يقرأ حرفاً بوجه انفرد به بعض الرواة عن بعض السبعة أو العشرة فيخالف قراءة إمامه أو قراءات السبعة أو العشرة وإن وافق من انفرد = أو يقرأ بقراءة إمام من السبعة أو العشرة فيقرأ حروفاً بقراءة غيره

(١) عن الموضح ١٥٩.

(٢) عن التمهيد ٧٧.

(٣) عن جمال القراء للسخاوي ٥٢٩.

منهم فيخلط .

وهذا الذي ذكره المؤلف من أمثلة اللحن الجليّ :

١ – نصب حروف قرأها الجمهور بالرفع، والنصب فيها روي من بعض الطرق عن بعض السبعة أو العشرة أو هو شاذ (رقم ٦ و ١٠٤) .

٢ – رفع حروف قرأها الجمهور بالنصب. والرفع فيها ورد من بعض الطرق أو هو شاذ (رقم ١٦)، أو لم يقرأ به أحد (رقم ٩) .

٣ – رفع حرف قرأه الجمهور بالجر (رقم ١٣). ورفعه قراءة ابن محيصن.

٤ – جر حروف قرأها الجمهور بالرفع. والجر فيها شاذ (رقم ٢٩) .

٥ – قراءة حروف من المضارع الذي أجمعوا على قراءته بالياء أو على قراءته بالتاء أو اختلفوا فيه. يخرج العامة على قراءة إمامهم من السبعة وإن وافقوا فيها بعض السبعة (رقم ٢٤ و ٢٥و ٢٦و ٢٧و ٢٨).

٦ – حذف همزة الاستفهام في حرف أجمع القراء على إثباتها فيه (رقم ٢٣) وحذفها شاذ .

٧ – ضم الحرف الذي قرأه الإمام بالإسكان، والضم فيه قراءة بعض السبعة أو العشرة (رقم ٥و ٢٠) .

٨ – فتح الحرف الذي قرأه الجمهور بالكسر (رقم ١٧)، أو قرأه الجمهور بالإسكان (رقم ٣) .

٩ – قراءة حرف خارج السبعة (رقم ١١و ١٢و ١٥) .

قرأتُ هذه الرسالة، وخرّجت ماشتملت عليه من آي القرآن الكريم، وجعلت تخريج الآية عقبها في المتن، وخرّجت ماعرفت مصدره مما ذكره

المؤلف من اختلاف القراءة في بعض الآي، وعلقت على النص بما يوضحه .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً .

وكتب

الدكتور محمد أحمد الدالي

يوم الاثنين ١٧ رجب ١٤١٨ هـ

١٧ تشرين الثاني ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم ما تلحن فيه العامة في التنزيل الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين
يجيء حروف من التنزيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تلحن فيه العامة وقد كثر لحنهم
بذلك ولا نكاد نجد منصوصاً عليها في كتبهم فجمعنا ذلك لتعرف علته والله المستعان فمن ذلك سورة
البقرة وبالآخرة هم يوقنون بتركه وهو إجماع بين الأئمة [illegible] من أيقن يوقن [illegible] من الياء فلا
يجوز الهمز فيها فأما قوله يؤمنون بالغيب ويؤمنون بما أنزل إليك وما هم بمؤمنين فقرأ الأمصار
فيه همزة ساكنة بعد الياء والميم على زنة يفعلون ومفعلين سوى أبي عمرو فإنه كان يبدل
من الهمزة واواً فيقرأ يومنون ومومنين وعلى الذيب والبير وقوله هذا [illegible] نظيره سوى
أبي عمرو على همزة ساكنة محققة وأبو عمرو يبدل من الهمزة ياء فيقرأ الذيب والبير وأما
[illegible] من العامة من [illegible] بين واو ساكنة وهمزة ساكنة في يؤمنون وبين ياء ساكنة في [illegible]
[illegible] في لسان العرب [illegible] في كلامهم [illegible] ساكنين [illegible]
[illegible] عليه [illegible] الكلام فيه [illegible] المغضوب [illegible] إثبات الياء
[illegible] إجماع [illegible] المغضوب [illegible] فإن إثبات
[illegible] وأما [illegible] قوله [illegible] إثبات الياء
[illegible] عن أبي عمرو وكلهم على حذفها وأما قوله [illegible] فهو المهتد ومن يضلل في
الأعراف فإثبات الياء فيه إجماع [illegible] سبيل [illegible] على بصيرة أنا ومن
[illegible] الياء [illegible] من قوله ومن اتبعن [illegible] الياء [illegible] إجماع بين الأئمة
[illegible] فهو المهتد [illegible] بني إسرائيل والكهف فإثبات الياء وحذفها جائزان ومن ذلك
[illegible] ولا [illegible] المغفرة [illegible] الميم [illegible] بين الأئمة [illegible]
[illegible] بالكتاب [illegible] والتخفيف جائزان [illegible] على التثقيل سوى أبي بكر [illegible]
[illegible] على التخفيف إلا أبا عمرو فإنه يثقل ومن ذلك قوله [illegible]
[illegible] التنزيل بالهمز [illegible] يؤاخذكم الله [illegible] إلا ما روي عن ورش [illegible]
[illegible] بالهمز إجماع إلا في رواية ورش [illegible] وتسوؤهم بالهمز إجماع إلا
ما روي عن ورش من ترك الهمز ومن ذلك قوله وهو بكل شيء [illegible] على فتح الهاء من غير إشباع
إلا أبا عمرو فإنه كان [illegible] الهاء [illegible] أنهم زعموا أن قوله وهو على زنة
[illegible] على زنة [illegible] العامة [illegible] وليس هذا في كلامهم ومن ذلك في سورة
آل عمران للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري [illegible] إجماع [illegible] إلا ما روي عن يعقوب جنات بالكسر على أنه
يكون بدلاً من قوله بخير من ذلكم فأما قوله في سورة الأنعام ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات
بنصب التاء إجماع [illegible] إلا ما روي عن الأعشى [illegible] من فتح التاء وهو [illegible]

ماتَلْحَنُ فِيهِ العَامَّة
في التنزيل

تأليف

نور الدين جامع العلوم أبي الحسن علي بن الحسين الأصبهاني الباقوليّ

(ت ٥٤٣ هـ)